نحو خطاب ديني عالمي إنساني
تفعيل حقوق الإنسان للخطاب الديني العالمي

د. أحسن زقور
أستاذ محاضر بكلية العلوم الإنسانية
والحضارة الإسلامية
-جامعة وهران-

مما لا شك فيه أن الخطاب الديني قد لازم كل الأديان من قديم الزمان إلى يومنا هذا، وسيظل إلى يوم القيامة ما دام الإنسان في حاجة إلى دين يسترشد به في الدارين...

وإذا كان الخطاب الديني السموي أساسه خطاب الله تبارك وتعالى للبشرية، إذ تعمل فيه عقلها فهما وتدبرا ....فتزداد العقول شحذا واطمئنانا، فتكون في مأمن من الوقوع في الزلل كلما أحسنت الفهم وأحسنت التدبر في خطاب خالقها تبارك وتعالى... فإن الخطاب الديني الأرضي لهو معرى عن خطاب الله تعالى، فلا يعتمد على أي إرشاد سموي، اللهم إلا إرشاد الخلقة والفطرة وعلى رأسها الإرشادات المنطقية.

ومما لا شك فيه أن الله تعالى قد جعل الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا فيتعاونوا على إعمار هذه الأرض التي أمرهم الله تعالى بإعمارها إذ قال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: 61) وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

﴿خَبِيرٌ﴾ (الحجرات13)، فيخاطب بعضهم بعضا مهما اختلفت أجناسهم ومللهم ونحلهم، وقد يصلوا في خطابهم لبعضهم بعضا إلى ما تقرّ به أعينهم، وقد يصلوا إلى غير ذلك....

وإذا علمنا أن حقوق الإنسان المعلنة من طرف الجمعية العامة للأمم المتحدة بـ 1948/12/10م هي إلى الآن تلقى أعظم نصيب من الاحترام البشري.... وهي الحد الأدنى المشترك الذي قد يكون بذرة طيبة ونواة للتفاهم البشري والعمل على تحقيق العدل والمساواة بين أفراد البشر ثم سعادتهم على هذه الأرض إن أحسنوا زرع هذه البذرة ورعايتها عبر الزمان والمكان....

وإذا كان الحال هكذا: فما مدى إمكان تفعيل هذه الحقوق للخطاب الديني في العالم لإيجاد أرضية طيبة للحوار الجاد بين شتى البشر مع اختلاف أجناسهم وألوانهم ونحلهم وأديانهم حتى يصلوا إلى ما يسعدهم ويتجنبوا به ويلات الاختلاف بينهم والحروب والدمار وسيطرة بعضهم على بعض؟

وما مدى تفعيل الخطاب الديني لحقوق الإنسان صيانة للإنسان؟

وما هو الحد الأدنى من القواعد التي يمكن أن يحكم بها هذا الخطاب المأمول؟

وحتى أجيب عن هذه الأسئلة في هذا الشأن فقد قسمت الموضوع إلى مقدمة وفصلين وخاتمة وقسمت كل فصل إلى مبحثين.

الفصل الأول: حقوق الإنسان العالمية وعلاقاتها بالخطاب الديني.

المبحث الأول:

صيانة الخطاب الديني لحقوق الإنسان وتفعيلها:

لقد غرس الله تبارك وتعالى مبدأ التحضر في الناس خلقة، بحيث هذا المبدأ هو الذي يحقق لهم المهمة الأولى على هذه الأرض ألا وهي عمارتها وبناؤها، قال تعالى: ﴿وَأَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1]، ولا يكون الإعمار بدون تحضر، بل الإعمار هو عين الحضارة، وما قام به الإنسان من بناء للحضارة على هذه الأرض يكون صالحا لأن يتكرر على كوكب آخر.

ولهذا نجد أن السباق نحو التحضر يؤدي إلى الزعامة إن آجلا أم عاجلا، لأن تحسين حياة الناس له من القوة والسطوة على أنفس الناس ماله بحكم ما خلق الله تعالى في أنفسهم من الميل اللاإرادي إلى رغد العيش وتحسين الحياة، فكل أمة أرادت أن تكون زعيمة لغيرها من الأمم فليس لها بد من أن تحسن حياتها وتزينها في كل طبقاتها سواء في طبقة الضروريات أم في طبقة الحاجيات أم في طبقة التحسينيات والتزويقيات، بغرض النظر عن كون عباداتها أصح العبادات أم لا؟ وهذا هو الذي كان في القديم ولا يزال إلى اليوم، فقد قامت حضارات وحضارات، وما من حضارة راعت أسباب النمو والازدهار إلا كان لها ذلك في التحضر ثم في الزعامة إلى الخير، وكل حضارة سقطت بعد فترة من الزمن إلاّ وتكون قد تخلت عن هذا المبدأ العظيم وهو مبدأ تحسين حياة الناس، ولهذا نجد أن أعمار حضارات الأمم تقاس بمدى أخذها لهذا المبدأ وهذه الأسباب، وكلما صبرت عليهما: كان عمرها أطول.... ومن أعظم أسباب سقوط الحضارات: الحروب المدمرة

التي من أبرز أسبابها: سوء الفهم والتفاهم بين الناس والناشئ عن سوء إدارة الحوار بينهم وسوء تقديم الحقائق المنطقية والحقائق الدينية التي يمتلكها كل طرف من أطراف هذه الحروب وكلما بادر كل طرف أي حسن إدارة الحوار من الطرف الآخر: قلت تلك الحروب ثم تلك الكوارث الناشئة عنها، ولنا في رسول الله ﷺ إسوة حسنة في ذلك، إذا يكفي أن أذكر بما جرى بينه وبين قريش في صلح الحديبية. ولنا في رسول الله أسوة حسنة في ذلك....

وإن في ديننا الحنيف من المبادئ والقواعد ما يجعلنا نعود إلى قمم الحضارة والتحضر والزعامة والتزعم في أوجز مدة من الزمن كما فعل أجدادنا طيلة ألف سنة، بدأت بزعامة محمد ﷺ وتحضره ثم إلى أصحابه رضوان الله عليهم ثم إلى تابعيهم ثم إلى كل أجناس البشر تحت لواء حضارة ليس لها مقياس تجاه الآخرين إلا بقدر ما يقدم الإنسان من خدمة للخير إلى نفسه وإلى غيره، إذ وصلوا إلى الزعامة والتحضر في أوجز فترة ثم حافظوا عليهما في أطول فترة للزعامة والحضارة والتحضر.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[2] كيف نقرأ هذه الآية في الصباح وفي المساء ولا آخذ بأسباب هذا التسخير لبناء الحضارة الإنسانية التي استعملنا الله لبنائها؟ قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[3]، ومن هذه النعم: أن جعل الله للإنسان عامة حقوقا على غيره من المسخرات حتى يتم له التسخير الأمثل، وجعل للإنسان حقوقا على أخيه الإنسان ليستقيم حال تسخير الأمثل، وجعل للإنسان حقوقا على أخيه الإنسان

ليستقيم حال تسخير غير الإنسان من الإنسان وحال إعمار الأرض كما ذكرنا سابقا.

وقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[4] ولا يكون هذا الدين كاملا إلا إذا كان كاملا في كل نواحي الحياة منها: أن يضمن كل حقوق الإنسان في كل الأعصار وفي كل الأمصار، إذ كيف يكون الدين كاملا إذا كان هادرا لهذه الحقوق التي هي أساسية في حياة الإنسان وبدونها لا يستطيع القيام بمهمته في هذه الدنيا، ألا وهي العبادة والمعاش لإعمار الأرض التي تخلفت فيها؟.

وكيف يكون كاملا إذا كان هادرا لقواعد الحوار البشري وجماله؟ خاصة إذا علمنا أنه لاتفاهم على أي شيء إلا بحوار جاد بين المتحاورين، ولمكانة إبراز جمال الحوار بين الناس: فقد ألزم الله تعالى رسوله ﷺ بأحسن جدال وأجمله فقال تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[5]، وبشره بالنتيجة الرائعة بعده فقال تعالى: ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[6] وما يصدق على نبي الله بالأمر به يصدق على أتباعه إلى يوم القيامة، وفي ذلك لفتة هامة إلى سطوة الجمال على أنفس الناس حتى جمال الحوار بينهم، وإذا كان الحال هكذا: كان لزاما على المسلمين أن يستنبطوا هذه الحقوق من نصوص الشريعة الوافرة، كما كان لزاما عليهم أن يستنبطوا كل أدوات وقواعد الحوار بينهم وبين غيرهم عامة وعلى هذه الحقوق خاصة، لتكون منها القواعد الأساسية لأي حوار بينهم، وكان لزاما عليهم أن يستنبطوا كل قواعد بناء الحضارات على مر العصور،

وإن تصارعت حضارات مع حضارتهم كان لزاما عليهم أن يكونوا أحسن المحاورين، ولا يكونون كذلك إلا إذا علموا قوة الحقائق الدينية التي يحاورون عليها وقوة جمالها ومكانتها في نفوس سائر الناس، كما يعرفون مكانة العاطفة في حياة الناس كذلك وأن الأصل أن يأخذوا باللين والرفق لا بالقهر والشدة، وإن فرض عليهم الصراع كان عليهم أن يكونوا أقوى المصارعين لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وأن يكونوا أرحمهم عند الغلبة والقهر، ولنا في رسول الله ﷺ الإسوة الحسنة في كل حروبه وانتصاراته، فأنظر إليه في بدر وفتح مكة وهوازن وثقيف.

والبشر كلهم أسرة واحدة قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (7) وخاطب كل البشر بأنهم أبناء آدم عليه السلام بقوله: ﴿يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (8)، وقال: ﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ (9)، إلى غير ذلك من الآيات التي خاطب فيها الله تعالى كل البشر بأنهم من رجل واحد ألا وهو آدم عليه السلام، وقد أكد النبي ﷺ هذا الانتماء البشري الوحيد لآدم فقال: " **كلكم لآدم، وآدم من تراب، فلا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى**"(10) وقال: " **ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح**"(11).

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[12] فإذا تعارفوا تحاوروا فتعاونوا أو تقاطعوا، فإن أحسنوا الحوار: تفاهموا وتعاونوا، فتصالحوا (من جلب المصلحة) وهي إقامة مصالح بعضهم لبعض....وإن لم يحسنوا الحوار اختلفوا فتقاطعوا ثم تحاربوا..... فأفسد بعضهم بعضا، فهذه الآية تثبت عبثية دعوى من يدعي التفرقة في أصل الإنسان، كما تثبت عبثية القول بقولبة الناس في نمط واحد من الحياة، وإلغاء كونهم شعوبا مختلفة وقبائل مختلفة، مختلفة في معاشاتها وتقاليدها وأعرافها وعوائدها و ....

وإن من أبرز مستجدات هذا العصر لهي بروز العولمة من جديد، وهي: محاولة كل جهة من العالم فرض ما عندها على الآخرين بالقهر، وإما بقهر السلاح أو بقهر الإغراء بعرض حقائق ما عندها وإظهار جمالها، وإذا كان الحال هكذا فهل جميع الأديان عالمية؟ أم أن الدين العالمي وحيد في هذه الدنيا؟ ولا يهمنا من سائر الأديان أكانت عالمية أم لا؟ إنما يهمنا إثبات عالمية الإسلام بحكم انتمائنا إليه وذلك بالحجة والبرهان، فإذا نظرنا في الكتاب العزيز وجدنا آيات كثيرة تثبت عالميته منها:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[13] وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[14] وآيات كثيرة تثبت أن محمدا ﷺ قد بعثه الله تعالى للناس كافة، فكانت رسالته عالمية، ومن السنة قوله ﷺ: " أعطيت خمسا لم يعطهنّ أحد قبلي وذكر: "وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة "[15] وهذا الحديث الصحيح يثبت عولمة الدين الإسلامي كما أثبتته الآيات السابقة، ومما يؤكد هذه العولمة للدين الإسلامي: أن جعله الله تعالى آخر الأديان السماوية، ولو لم يكن عالميا لوجدت أقوام من البشر لم يبعث الله لهم

أي نبي، لأن الأنبياء عليهم السلام السابقين عن محمد ﷺ كان كل واحد يبعث إلى قومه فقط، و لم يدع أي نبي منهم أي قوم من غير قومه، وعدل الله تعالى يقتضي أن كل البشر قد متعهم الله برسالة سماوية سواء أكانت متقدمة أم متأخرة، بل من عدله أن جعل أن لا يعذب أي قوم إلا إذا بعث إليهم رسولا وعصوا هذا الرسول قال تعالى:﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء 15).

ومما يؤكد هذه العولمة للدين الإسلامي كذلك أن جعله الله تعالى آخر الأديان كذلك فجعل فيه ما يجعل الإنسان المخاطب به مقبلا على قبوله والانصياع إليه بمجرد ما تقع حجته على أفهامه ومداركه، وما ذلك إلا لأنه قد خاطب الناس بفطرهم التي فطرهم الله عليها ألا وهي الخلقة الصافية غير المشوشة بأي مشوش أو منغصة بأي منغص[16].

وإذا كان الحال كما أثبتنا سابقا: فلم الخشية من العولمة يا ترى؟ وهي في الخير لا عولمة إلا العولمة الإسلامية، و لم نصور العولمة الحالية أنها الغول الذي سيأتي على سائر الناس فيلتهمهم بأسرع من البرق؟ و لم نضخم الأمور الصغيرة ونجعل من الحبة الصغيرة قبة كبيرة؟ و لم نجعل من العثرة الصغيرة الموتة الأخيرة؟ و لم نخف على الكبير من الصغير؟ و لم نخف من الضعيف على القوي؟ و لم و لم و لم؟.....

نتيجة:

إذا كان المسلمون قد تربوا على العولمة العبادية والمعاشية منذ نزول القرآن (15قرنا وربع قرن) فلماذا نخشى اليوم من عولمة صبية مازالت لا تدرك شيئا و لم تعمر إلى اليوم إلا خمس سنوات فقط، وأعني بها هذه العولمة التي تنادي بها أمريكا اليوم

وتتزعمها بل لم نخش من أي عولمة قد يخرج بها أي جنس من الأجناس إلى العالم في أي عصر من العصور؟ لا نخشى على أنفسنا من أي عولمة إلا إذا كنا لا نثق بعولمة الإسلام، ولا نكون كذلك إلا إذا كنا لا نثق في الله تعالى واضع هذه العولمة، أو كنا جاهلين بالإسلام وبعولمته وهذا عذر أقبح من ذنب ... فعلينا أن نعود إلى رشدنا ولا نخشى على الأسد من النملة.

وأن نرفض فكرة قولبة العالم بالعولمة العربية، والنظر إلى أن الإسلام هو ما عند العرب فقط سواء أوافق الإسلام أم خالفه، فالعولمة العربية المزعومة ليست عالمية وإنما الإسلام هو العالمي، وخشيتنا على العولمة العربية المزعومة ليست عالمية، وإنما نخشى على العولمة الإسلامية، إذ خشينا على الأرنب ليس مبررا لنا بأن نخشى على الأسد.

المبحث الثاني:

ضمان حقوق الإنسان المعلنة من طرف الجمعية العامة للأمم المتحدة للخطاب الديني:

مما لا شك فيه أن المصلحة هي التي ينبغي أن يعمل الناس على جلبها وأن المفسدة هي التي يعملون على دفعها.

وإذا ما نظرنا اليوم بنظرة متفحصة إلى حقوق الإنسان المعلنة عالميا في الجمعية العامة للأمم المتحدة يوم 1948/12/10 وقرأنا ديباجتها وموادها مادة مادة بكل موضوعية وبغير أي تحيز لأي جهة، وبدون أي أفكار مضادة لها مسبقا لأدركنا: أنها من الحكم التي يجب على المسلم أن يكون هو أحق بها من غيره، إذ الأصل في المسلم أن ينظر إلى تحقيق المصلحة بغض النظر عن مصدرها، لأنه يؤمن جازما أن الله تعالى قد أودع دينه الإسلامي

كل قواعد جلب المصلحة وكل قواعد دفع المفسدة، وترك الأمر للناس يتبارون في اكتشافها، وفي ذلك يتنافس المتنافسون، فإن كانوا هم السابقون لها فبها ونعمت، وإن سبقوا في ذلك أدركنا وجودها في شرعنا كما أدركنا تقاعسنا وعدم قيامنا بالواجب نحو ديننا في اكتشاف هذه القواعد الجالبة للمصلحة الدافعة للمفسدة.

وإذا ما تتبعت أيها القارئ الكريم الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عامة، مع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في الإسلام لوجدت أن كل مادة من الإعلان الأول هي موجودة في الإعلان الثاني ولتحقّق عندك أن الأولى محتواه في الثانية، ولتبين لك أن كل مادة من الأولى لها أصولا في القرآن الكريم والسنة النبوية كما للثانية تماما.

وعلى ما سبق: أدعو إلى وجوب اعتماد الإعلان العالمي للجمعية العامة للأمم المتحدة لحقوق الإنسان بتاريخ 1948/12/10 على أن تكون هي المواد الأولى للحوار العالمي بين سائر شعوب المعمورة فيما بين أفراد أي شعب من هذه الشعوب، ثم فيما بين الشعوب المختلفة في هذا العالم، وذلك للوصول إلى عولمة تسعد جميع الناس، إذ تحافظ على هوية كل شعب وعلى خصوصياته وتبني مجتمعا إنسانيا راقيا في جو من الاحترام، وفي جو من التعاون المثمر....

وعلينا أن لا نخشى من هذا الحوار أبدا لأن من قواعد الإسلام وفروعه ما جعلنا متفوقين في هذا الميدان التفوق الأعظم، مما يجعلنا نحقق عالمية الإسلام في أوجز وقت ممكن، وعلينا أن لا نغلق الأبواب والنوافذ ونتقوقع بالإسلام فتلحقنا لعنة الله تعالى، إذا فرطنا في نشره وتبليغه إلى كافة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة والدفع بالتي هي أحسن

والمجادلة بالتي هي أحسن وأجمل وبالتبشير وليس بالتنفير وبالتيسير وليس بالتعسير ....

أما لماذا لا يكون الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في الإسلام الذي ذكرته سابقا هو الذي يجب أن نعتبره النواة الأولى للحوار العالمي بين كل شعوب المعمورة: فلأنه أشمل وأوسع من الإعلان العالمي للجمعية العامة للأمم المتحدة لحقوق الإنسان (1948/12/10) والنواة دائمة تكون هي الأضيق من غيرها مما يحويها ولا يتضرر الحاوي بما ينتج عن المحتوى بخلاف العكس فإنه قد يتضرر المحتوى بما حوى فيه.

الفصل الثاني: نحو خطاب ديني عالمي إنساني:

المبحث الأول:

قواعد الخطاب الديني العالمي الإنساني:

علينا نحن أصحاب الأديان أن نضع نصب أعيننا القواعد التالية لتحسين الحوار وتجميله بيننا وبين غيرنا:

1-تنوع الناس واختلافهم باختلاف أجناسهم واختلاف عاداتهم وأعرافهم وأزمانهم وأمكنتهم لقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[17] إذ تثبت هذه الآية هذه الحقيقة من التنوع في البشر أينما كانوا، كما تلفت الانتباه إلى عبثية محاولة جعل كل شعوب العالم شعبا واحدا، وكل أجناس العالم جنسا واحدا، وكل معاشات الناس معاشا واحدا، وعلى هذه القاعدة يجب على المسلمين مراعاة اعتبار عوائد الناس

وأعرافهم شرعا في كل حوار معهم، وأنها كلها إسلامية إلا ما كانت متصادمة مع قواعد الإسلام، وذلك معاملة بالمثل من الإسلام لسائر شعوب العالم، مثلما عامل العرب زمان نزول الوحي، بل قد عامل يومئذ أنواع قبائل العرب باختلافهم، بل حتى في التخاطب معهم كان رسول الله ﷺ يخاطب كل قبيلة بلغتها وعلى وفق عوائدها وأعرافها.

2- الاعتماد على المصدر الأعلم للمعلومة: ولما كان الله تعالى هو أعلم العالمين وكان الإنسان لم يؤت من العلم إلا قليلا، قال تعالى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[18]، استلزم وجوب العودة إلى دين الله للحكم على ما اختلف الناس فيه كلما عجزوا عن ذلك، وإن لم يعجزوا فلهم أن لا يعودوا، وصاحب العلم القليل لا يمكن أن يستقل عن صاحب العلم الكثير، فما بالك أن يستقل عن أعلم العالمين سبحانه وتعالى؟ وصاحب العلم الكثير هو دائما منتصر على صاحب العلم القليل، وتابع صاحب العلم الكثير هو دائما منتصر على تابع صاحب العلم القليل كذلك:

3- ضعف الإنسان إذا لم تسنده قوة ربه .... وشقوته حين يحرم بركته[19]، ولما كان المسلم المحاور لغيره تسنده حجج ربه كان أقوى من غيره في هذا الحوار.

4- الدعوة إلى احترام التقاليد المستقرة في بيئات مختلفة ما دام لا يصادمها نص شرعي[20]، والدليل على ذلك احترام الإسلام لتقاليد العرب عند نزول الوحي، إذ اعتبر كل تقاليدهم فأقرها وأبقاها، بل بنى عليها تشريعات جمة إلا ما تصادم مع النصوص الشرعية، ولما كان لا فرق بين العرب والعجم عند الله تعالى كان لزاما اعتبار هذه القاعدة وهي احترام تقاليد الغير ما دامت لا تتصادم مع أصول الشريعة الإسلامية.

5- رفض التشبث باجتهاد ما إذا كان يعوق سير الدعوة الإسلامية فـــلا وزن لاجتهاد فرعي يعترض إنتشار الأصول والأركان.

6- مراعاة مكانة الحقائق الدينية وقوتها عند محاورة أي طرف من الناس والتأكّد من إمكان خضوعه لها، إذ أن للحقيقة سطوة على نفوس الناس وعقولهم، فكلما تبينـــت الحقيقة للإنسان بحججها السليمة فإنه لا يجد بدا أمامه إلا أن يتقبلها ويذعن إليها رغـــم أنفه حتى وإن عاندها ورفضها مبدئيا: "فلا بد وأن يتقبلها ويسلم بها فيما بعد حـــتى وإن طال به الأمد، لأنه هكذا خلقه الله ضعيفا أمامها تظل تطارده هذه الحقيقة بقوتها وبحجتها الساطعة من داخله.... هذه القوة التي في الحجة تظل تطارده وتدفعه دفعا إلى الحقيقـــة حتى يذعن إليها ويسلم بها، بل ربما بقي الأيام والأشهر والسنوات في صراع مع نفســـه ومع هذه القوة الداخلية، هو يحاول دفعها ورفضها وهي تحاول جذبه وأخذه إلى الحقيقة حتى يقر بها ويسلم لها بالقهر، قال الشاطبي في معرض كلامـــه عـــن عـــدم التكليـــف بالأوصاف الباطنية لأنها قاهرة للإنسان وليس بمقدوره الوقوف أمامها" فإن الأوصـــاف القلبية لا قدرة للإنسان على إثباتها أو نفيها، أفلا ترى أن العلم وإن كان مطلوبا: فلـــيس تحصيله بمقدور أصلا، فإن الطالب إذا توجه نحو مطلوب:

- إن كان من الضروريات -كالبديهيات- فهو حاصل، ولا يمكن الانصراف عنه.

- وإن كان غير ضروري: لم يمكن تحصيله إلا بتقديم النظر، وهو المكتسب دون نفس العلم، لأنه داخل عليه بعد النظر ضرورة ،لأن النتيجة لازمة للمتقـــدمين، فتوجيـــه النظر فيه هو المكتسب، فيكون المطلوب وحده، والشاهد من النص: قوله عن هذا العلم سواء أكان ضروريا أم بعد نظر فإنه لا بد وأن يدخله وسوف يحصل له بالضرورة إذ ليس

بمقدوره أن يدفعه، إذ العلم الضروري يدخل إلى إدراك الإنسان بقهر الضرورة، والعلم المكتسب وهو الحاصل بعد النظر يدخل إلى إدراكه بقوة الحقيقية التي فيه ويضعف الإنسان خلقه أمامه.

2-مراعاة درجة إغراء الطرف المحاور بالجمال وتأثره به: إذ أن للجمال سطوة على نفوس الناس خلقة إذ قد خلق الله تعالى الإنسان في أحسن صورة وأكمل تعديل كما قال: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (22) وخلق فيه ميلا عجيبا إلى الجمال وأعني بالجمال: مطلق الجمال فكلما ظهر له أنبهر به وسعى إليه وتعلق به، كما خلق فيه نفورا عجيبا من القبح، فكلما ظهر له اشمأز منه ونفر وابتعد عنه، وليس هذا فقط، بل أمره في عدة مواطن بالأخذ بالجمال أمرا جازما أو أمرا غير جازم، قال تعالى: ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾(23) وإذا كان هذا الأمر عند المسجد، ومن يعتاد المسجد هم المسلمون فقط بل نخبتهم من المصلين والذين لا يتأثرون برؤية المسلم غير الجميل، فمن باب أولى اتخاذ الزينة عند غير المسجد في الطرقات وفي الأسواق وفي .... حتى يكون المسلم مغريا للناس بجماله، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ (24) وقال: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (25) وقال ﷺ: " **إن الله جميل يحب الجمال**" ولقد خلق الله تعالى الكون في غاية الجمال وسخره لبني البشر لكي ينهلوا منه ما يشاؤون ولكي يتمتعوا به غاية التمتع، وإذا كانت هذه هي حالة الإنسان لا يقدر على مقاومة ميله للجمال إذ هو ميل فطري خلقي لا إرادي، فقد بنى الله تعالى شريعته على قاعدة الجمال:"**أينما وجد الجمال فثم شرع الله**"، وهذا في غير الجمال المنصوص

عليه، فكلما وجدنا جمالا لا يمازحه قبح أو وجدنا الجمال أكبر من القبح أخذنا به، أما الجمال المنصوص عليه فإننا نأخذ به بالنص كالنصوص السابق ذكرها، وكقوله تعالى واصفا كتابه: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (26) وقال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (27) فلما لم تفسدا كان الإله واحدا وفي هذا البرهان لفت للأنظار إلى جمال السماء وجمال الأرض، إذ لا يعرف المخاطب فسادها وعدم فسادها إلا بعد النظر فيهما، ولا يراهما إلا إذا رأى جمالهما.... وفي إظهار جمالهما يتنافس المتنافسون.

3-مراعاة تأثر الطرف المحاور بالعاطفة الجياشة خلقة: إن الله تعالى قد خلق الإنسان ضعيفا محتاجا إلى من يعطف عليه وإلى من يرعاه، فلا يأخذه بالشدة والغلظة، ولكن يأخذه بالرفق واللين متدرجا به من الدرجات السفلى إلى الدرجات العليا على سلم الأخلاق والفضائل السامية، وعلى سلم الحياة بقاعدة جلب المصالح ودفع المفاسد، وبهذا التصرف معه نجده ينجذب إلى الحق انجذابا ومسلما نفسه إلى الحق تسليما، وهذا تحت تأثير قوة دافعة داخلية، غرزها الله تعالى في خلقه، وهذه القوة الداخلية تظل تطارده إلى أن يستجيب إلى الحق لا إراديا، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن الله تعالى لما خلق الإنسان حاملا لهذه الصفة ولهذا الضعف-إن شئت أن تسميه بهذا الاسم- أمام قوة العاطفة واللين، جعل شريعته الإسلامية متصفة بأعلى مراتب هذه الصفة، تأخذ الناس دائما بالرفق واللين، فتتدرج بهم من الدرجات الدنيا إلى الدرجات العليا، وخير دليل على ذلك:

-طمأنة الناس: بأن إلههم يحبهم ويعطف عليهم ويوفر لهم كل أسباب الحياة والسعادة في الدنيا وفي الآخرة، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[28].

- بناء الشريعة الإسلامية على اليسر ورفع الحرج: قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[29]، وقال: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[30].

- عاطفة النبي ﷺ نحو الناس عامة ونحو أتباعه خاصة: لقد كان ﷺ قطعة من العاطفة الجياشة تمشي على الأرض ملك قلوب أصحابه وأتباعه على مر العصور، بل لقد ملك حتى قلوب أعدائه قال تبارك وتعالى في حقه: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[31] وهل يقوم للأخلاق قائمة بدون عاطفة تأخذ الناس بما يليق بضعفهم وأهوائهم وعزتهم؟

-وقال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾[32].

1-تقديم الأصول على الفروع فيما بين أهل الملة الواحدة.

2- تقديم الفروع على الأصول فيما بين أكثر من ملة واحدة ومن هنا جاز لنا أن نأخذ بكل القوانين في الفروع الفقهية التي فيها صلاحنا ولا تتعارض مع النصوص الشرعية.

المبحث الثاني:

أثر تفعيل حقوق الإنسان للخطاب الديني العالمي:

لقد نصت المادة 21 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (1948/12/10) على ما يأتي:

1-لكل فرد الحق في الاشتراك في إدارة الشؤون العامة لبلاده، إما مباشرة وإما بواسطة ممثلين يختارون اختيارا حرا.

2- لكل شخص نفس الحق الذي لغيره في تقليد الوظائف العامة في البلاد.

3- إن إرادة الشعب هي سلطة الحكومة، ويعبر عن هذه الإرادة بانتخابات نزيهة دورية تجري على أساس الاقتراع السري، وعلى قدم المساواة بين الجميع أو حسب أي إجراء مماثل يضمن حرية التصويت.

وهذه المادة تقابلها: المادة 14 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في الإسلام (1981/09/19):

أ- لكل فرد الحق في أن يشارك -فردا أو مع غيره- في حياة الجماعة: دينيا واجتماعيا وثقافيا وسياسيا....الخ، وأن ينشئ من المؤسسات ويصطنع من الوسائل ما هو ضروري لممارسة هذا الحق، قال تعالى:﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (33).

ب- من حق كل فرد ومن واجبه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وان يطالب المجتمع بإقامة المؤسسات التي تهيئ للأفراد الوفاء بهذه المسؤولية تعاونا على البر والتقوى، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (34).

وقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (35) وقال ﷺ: **"إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب"** (36)

-فبمقارنة الفرع (1) من المادة (21 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان) بالفرع (أ) من المادة(14 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في الإسلام) نلاحظ تمام تطابقها، ولما كان للفرع الخير أصل كما نرى في الشريعة الإسلامية: كان للأول نفس الأصل إذن.

- أما الفرع (2) من المادة (21 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان) فأصله قوله عليه الصلاة والسلام:**"الناس سواسية كأسنان المشط"**(37) لما كانوا سواسية: كانوا كذلك في حق تولي الوظائف العامة، قال ﷺ:**"لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي ولا لأبيض على أسود ولا أسود على أبيض إلا بالتقوى"**.

- ومن التقوى إدارة هذه الوظائف على بينة وكفاءة فالمقياس الأول لإدارتها: الكفاءة وحسن الإدارة.

- لما كان شرط تولي الوظائف العامة هو الكفاءة وحسن التسيير، وكانت وظائف الحكومة هي من الوظائف العامة: كان من شروط توليها: الكفاءة وحسن التسيير، ولما

كان الأمر كذلك كان اختيار من يتولى هذه الوظائف يرجع إلى الشعب صاحب هـذه المناصب يولي عليها من يشاء ويعزل من يشاء، ولما كان كذلك كان من ولاه الشـعب فقد أعطاه السلطة، ومن عزله فقد نزع عنه السلطة، فكانت سلطة الحكومة في تطبيـق شرع الله أو غيره هي من سلطة الشعب، وأفضل وسيلة لاختيارهم هو الانتخاب السري، أو في وسيلة تؤدي إلى حسن الاختيار، وأول حسن للاختيار: أن يكون بعيدا عن المحاباة، قال أبو بكر الصديق ﷺ لما ولي على المسلمين:"**أطيعوني ما أطعت الله ورسـوله فـإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي**" ولقد اختير أبو بكر الصديق على رأس المسلمين خليفة بواسطة الانتخاب الحر الذي ليس فيه شائبة ضغط على الناخبين.

الهوامش

1-هود : 61
2-لقمان: 20
3-هود : 61
4- المائدة:03
5- النحل: 125
6- فصلت: 34
7- النساء: 01
8- الأعراف: 35
9- الأعراف: 31
10- رواه مسلم
11- رواه البخاري
12- الحجرات: 31
13- سبأ : 28
14- الأعراف: 158
15- رواه البخاري في صحيحه
16 أنظر مقاصد الشريعة الإسلامية محمد الطاهر بن عاشور، ص 88 طبعة المؤسسة لوطنية للكتاب الجزائري، الجزائر.
17- الحجرات: 13

18- الإسراء: 85
19- المرجع نفسه
20- المرجع نفسه
21- الموافقات للشاطبي 111/2.
22- التين: 04
23- الأعراف: 31
24- الأعراف: 32
25- النحل: 06
26- الزمر: 23
27- الأنبياء: 23
28-المائدة: 54
29- الحج: 78
30- البقرة: 75
31- سورة القلم
32- آل عمران :159
33- يوسف: 108
34- آل عمران: 104
35- المائدة: 02
36- رواه أصحاب السنة بسند صحيح
37- رواه الديلمي بلفظ: سواء.